﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ الإنسان هنا، يحتمل أن يراد به جنس الإنسان، ويحتمل أن يراد به الكافر خاصة. وقد ذكر بعض المفسرين أن الغالب في (الإنسان) في السور المكية، أنه الكافر.

﴿ ٱبْتَلَىٰهُ ﴾ أي اختبره ﴿ رَبُّهُۥ ﴾ هذه ربوبية عامة. ﴿ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾ أكرمه بالمال، والصحة، والجاه، وأي نوع من أنواع الإكرام، والإنعام.

﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ يصف الله تعالى حال الإنسان من حيث هو إنسان، أو الإنسان صاحب النفس المنحرفة، بأنه إذا رأى في قدر الله تعالى له توسعة في الرزق، وصحة في البدن، ونيلا لما يهوى، ويشتهي، ظن ذلك دليل كرامة، ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ أي: أنا كريم على الله!

وبالمقابل ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ أي: ضيق، كما قال: (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله) يعني ضيق عليه رزقه. ومنه قول النبي ﷺ "فإن غمَّ عليكم فاقدروا له" متفق عليه[1]. والرزق يشمل رزق المال، ورزق الصحة، ورزق الجاه، وجميع أنواع الرزق.

﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ أي يظن أن تضيق الله تعالى عليه في الرزق، وحبس بعض ما يشتهي، دليل على هوانه على الله! هكذا يقع في نفس الكافر، أوفي النفوس المنحرفة، أو ضعيفة الإيمان. فلأجل ذا عقب الله تعالى على هذين الحالين بقوله (كَلَّا) فهي إذاً متعلقة بما قبلها.

---

[1] صحيح البخاري (1808)، صحيح مسلم (1080).

و(كَلَّا) كلمة ردع، وزجر، يراد بها إبطال، وإسقاط ما تقدمها. ومعناها: ليس الأمر كما تظنون، فليس عطاؤنا دليل كرامة، وليس منعنا دليل هوان. علامة الكرامة: إذا أعطي شكر، وإذا منع صبر. وعلامة المهانة: إذا أعطي بطر، وإذا منع ضجر. وعليه قول النبي ﷺ: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"رواه مسلم [٢].

وقد أدرك هذا المعنى أهل الإيمان فقال سليمان عليه السلام لما رأى عرش ملكة سبأ مستقرًا عنده:﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فأدرك أن تمكين الله تعالى إياه بإحضار عرش ملكة سبأ، قبل أن يرتد إليه طرفه، مسيرة آلاف الأميال، أنه ابتلاء، وأن حق ذلك هو الشكر. بخلاف قارون ؛ فإن قارون لما أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، وقال له قوم ه لا تفرح! أي فرح أشر، وبطر، رد عليهم بزهو، وتبختر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] ولم يثنِ بالنعمة على مسديها.

﴿بَل﴾: أي لكن حالكم أنكم:

﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾اليتيم: من مات أبوه ولم يبلغ سن الاحتلام. وهو أحد الضعيفين، كما قال النبي ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ "رواه ابن ماجه وأحمد في المسند [٣]. فكان من حال العرب في الجاهلية، أن اليتيم لا يفرضون له من الميراث، ولا يأبهون به، ويأكلون ماله، ولا يحسنون إليه، ل عدم أب يرجع إليه، ويعتضد به. وهذه أخلاق جاهلية، ناتجة عن فقد الإيمان أما المؤمن فلا يمكن أن يصدر منه ذلك، لأن إيمانه يزرع الرحمة في قلبه.

---

[٢] صحيح مسلم (2999).

[٣] سنن ابن ماجه (3678)، مسند أحمد(9666)، حسنه الألباني.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ يعني لا يحض بعضكم بعضًا،ولا تحضون أنفسكم. والحض: الحث. والمقصود بطعام المسكين: إطعام المسكين. والمسكين هو من أسكنته الفاقة، والعوز، تجده يميل للسكون، والخمول، لا يكاد يرفع طرفه، بسبب فقره، وعوزه. وهذا أمر مشاهد! لأن ما في النفس يظهر على الجوارح. فإذا كان الإنسان في حال اضطرار، وافتقار، وقلة ذات يد، تجده إذا خاطب الناس تمسكن، وكلمهم بصوت خفيض، وتوسل إليهم. وإذا ما صار له حظ من الغنى، انتشى، وافتخر، إلا من عصم الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق:٦-٧].

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾ (تأكلون)بالتاء، وقرئت بالياء. وهكذا جميع الأفعال الأربعة: تكرمون، وتحاضون، وتأكلون، وتحبون، بالتاء والياء. والتراث: هو الميراث. (لَّمًّا) أي شديداً. وفسرها بعضهم بقوله: سفًا، الذي يسف الطعام سفاً، كناية عن كثرته، حتى أنه ربما لا يمضغه لعجلته، ونهمه. وعبر بعضهم بلف كل شيء، وكلها ألفاظ متقاربة. وسبب ذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء، واليتامى، بل ولا يأتون النساء مهورهن، قال الله تعالى في مطلع سورة (النساء): ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ [النساء:٢]. والمراد اليتامى.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ أي كثيرًا، أو شديدًا. وهذا من طبيعة النفس في الأصل،﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ ٨﴾[العاديات٨] ولا يضبط هذه النزعات إلا الإيمان. فهذه أربعة أوصاف من صفاتهم الجاهلية، التي ذمهم الله تعالى عليها. وبه يتبين أن الأخلاق ثمرة للإيمان.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى : تنوع الابتلاء؛ بالسراء، والضراء.

الفائدة الثانية : أن السراء ليست دليلاً على الكرامة، بل شكرها دليل عليها.

الفائدة الثالثة : أن الضراء ليست دليلا على الهوان، بل الضجر منها دليل عليه.

الفائدة الرابعة : تعظيم حق اليتيم، والمسكين.

الفائدة الخامسة : أن الفساد الخلقي، تابع للفساد العقدي.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ ﴾: هذا انتقال في الأسلوب، ينقل القلب والعقل إلى ميدان آخر، وإلى موضوع جديد. ومعنى﴿ دُكَّتِ ﴾ أي: زلزلت، وحطمت، ودقت. فالدك: يحمل هذه المعاني، الحركة المضطربة المزلزلة، ثم التحطيم، فلا يبقى شيء على شيء، ثم الدق، والتفتيت.

﴿ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ ﴾: هذا التكرار للتأكيد، فإنه بليغ في إثبات المراد. وذلك يوم القيامة.

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ الجائي هو الله، فإنه أسند الفعل إليه.

﴿ وَٱلۡمَلَكُ ﴾ أي: وجاء الملك. الملك: جمع ملاك، مأخوذ من الألوكة، أي: الرسالة، وذلك لأن الله – تعالى – يرسلهم بأمره ووحيه.

﴿ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ أي: مصطفين صفوفاً، إثر صفوف. وهذا من أعظم مشاهد القيامة؛ حينما تنشق السماء الأولى، فيهبط ملائكتها، ويحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم السماء الثانية، فيحيطون بمن قبلهم، فالثالثة، فالرابعة، حتى السابعة. ثم بعد ذلك ينزل الرب – سبحانه وبحمده – لفصل القضاء بين العباد. وهذا هو المجيء المذكور في هذه

الآية. وهو مجيء حقيقي يليق بجلاله وعظمته ﷻ نثبته، ولا ننكره، ولا نعطله، ولا نؤوله بأنواع التحريفات، بل نثبته إثباتاً حقيقياً على ما يليق بجلال ربنا. ولا يجوز تفسير المجيء بأنه مجيء أمره. فكيف يقال أن قوله ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ ليس على ظاهره، بل هو مجيء أمره، ومجيء الملائكة على ظاهره، وهما في آية واحدة؟!! هذا من العدوان على النصوص، ومن التحكم بلا دليل. بل هو مجيء حقيقي للرب، ومجيء حقيقي للملك. فمجيء الملائكة يليق بهم كمخلوقين، ومجيء الرب يليق به لكونه الخالق.

وهذه الآية، وسائر آيات الصفات، يجب التصديق بها، وإجراؤها على ظاهرها اللائق به ﷻ ونعتقد أن ذلك لا يستلزم تشبيهًا، ولا شيئاً من اللوازم الفاسدة، التي ظنها بالله أهل التمثيل، وأهل التعطيل. وهو سبحانه أصدق قيلاً، وأحسن حديثًا من خلقه، وأعلم بنفسه، وبخلقه. والتحريف في هذه المقامات الخطيرة، افتيات على الله، ﷻ، وطعن في القرآن ، وطعن في الرسول. ولو شاء الله – تعالى – لعبر بما ادعوه، ولم يدع الأمر ملتبساً كما ظنوه، لكنه أراد حقاً، وصدقًا مدلول كلامه.

فنعتقد أنه يجيء – سبحانه وبحمده – يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، وأن المجيء، كما النزول، كما الاستواء، من صفاته الفعلية، المتعلقة بمشيئته وحكمته، يفعلها متى شاء، كيف شاء، إذا شاء، وأن فعله لها لا يتضمن نقصاً بحال.

وأما دعوى النفاة بأن هذا يلزم منه حلول الحوادث بالرب، فدعوى مردودة؛ لأن جنس الفعل صفة ذاتية لله، لأنه (فعال لما يريد)، لم يزل، ولا يزال فعالاً، وأما صوره، وأفراده، وآحاده، فتتنوع كما يقدر — سبحانه – ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وليس في إثبات ذلك نقص بل نفي أفعاله سبحانه هو النقص لأنه سلب لحقيقة مشيئته وقدرته.

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ هكذا بصيغة الفعل الذي لم يسمى فاعله، وذلك أن جهنم خلق لا يأتي بنفسه، بل يجيء بها ملائكة الرحمن. قال النبي ﷺ "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ

أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا "رواه مسلم[٤] . وهذا مشهد رهيب، مشهد جر النار جرًا، مع هول حجمها، وبعد قعرها، قد أضرمت آلاف السنين، فهي سوداء مظلمة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: الإنسان الكافر الذي كان مكذبًا بالمعاد، راداً خبر الله، وخبر رسوله.

﴿أنى﴾: كلمة استبعاد، وتيئيس. لأنه لا ينتفع من ذكراه حينذاك ولهذا قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[الأعلى:٩]ففي ذلك الوقت لا تنفع الذكرى. والاستفهام هنا للنفي.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾: ليت : أداة تمني. والمعنى ليتني قدمت في حياتي الأولى لحياتي الآخرة، من الإيمان والعمل الصالح. كما أنه عند الموت يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] فهو يندم ساعة الاحتضار، ويندم حينما يجاء بجهنم على هذه الصفة.

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾أي: ذلك اليوم﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ هكذا بكسر الذال، وبكسر الثاء، وعلى هذا فالضمير في (عذابه)، و(وثاقه) يرجع إلى الله سبحانه. وقرأت بالفتح فيهما، فيكون مرجع الضمير للكافر.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾: انتقل إلى أسلوب الخطاب. وهو خطاب للنفس المطمئنة بالإيمان. ومعناها: الآمنة، وقيل الموقنة، وقيل المخبتة، وقيل المصدقة. وهي معانٍ متقاربة .

والنفوس ثلاثة أنواع :

---

[٤] صحيح مسلم (2842).

1 – نفس مطمئنة.

2 – ونفس أمارة.

3 – ونفس لوامة.

فأما النفس المطمئنة: فهي التي سكنت على محبة الله، ورجائه، وخوفه، والتوكل عليه. فمن سمة النفس المؤمنة الطمأنينة؛ فتجد المؤمن مطمئنًا في اعتقاده، راضيا بالله رباً، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. وغير المؤمن نفسه تتلجلج، وتعصف بها الشبهات، والظنون الفاسدة، والاعتقادات الباطلة. فالمؤمن قد أوى إلى ركن متين، فهو يقابل نعم الله بشكرها، ويقابل المصائب بالصبر عليها، وإحسان الظن بالله. نسأل الله – تعالى – أن يرزقنا أنفساً مطمئنة، وقلوباً سليمة، وألسنة صادقة.

وأما النفس الأمارة، فنفس متمردة شموس، لا تتعلق بخالقها، وبارئها، فهي على النقيض من الأولى. وأما النفس اللوامة، فنفس تجري في مضمار بين النفسين السابقتين، فتتلوم على صاحبها؛ تتلوم أي: تتلون، تارة تلومه على الخير، وتارة تلومه على الشر. فهي بعد لم تطمئن، وربما آلت إلى أحد الحالين؛ فتمحض للخير، فتصير مطمئنة، وربما تتمحض للشر فتصير أمارة، وربما بقيت مترددة بين الحالين.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ يعني عودي. أي: إلى خالقك؛ وذلك للوقوف بين يديه، والتنعم بدار كرامته ومجاورته. وقيل: أن المقصود صاحبك الذي كنت فيه في الدنيا، أي للجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا.

ولكن القول الأول أولى؛ لأن الآيات دلت على الرد إلى الله؛ قال الله –ﷻ–﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر:٤٣]، وقال – سبحانه﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾[الأنعام٦٢]. ومن قال بالقول الثاني استدل بما جاء في حديث البراء بن عازب: (فيقول الله ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ

عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى)أحمد في المسند[٥].

﴿ راضية ﴾ بثواب الله، وموعوده، وما أعده لعباده الصالحين.

﴿ مرضية ﴾ اسم مفعول، يعني من قبل الله – ﷻ– فهي راضية عن الله، والله – تعالى – قد رضي عنها، وهذا يوافق قوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [البينة:٨].

(﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ ﴾ يعني: ادخلي في جملة عبادي الصالحين، وهذا يشعرها بالأنس؛ لأن الإنسان إذا ضم لشكله، وجنسه استأنس بهم.

(﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: دار كرامتي، ومحل ثوابي.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: هول يوم القيامة .

الفائدة الثانية: إثبات صفة المجيء لله تعالى على ما يليق بجلاله.

الفائدة الثالثة: إثبات الملائكة، وخضوعهم لربهم.

الفائدة الرابعة: إثبات النار، وشديد عذابها.

الفائدة الخامسة: شدة ندم الكافر يوم القيامة.

الفائدة السادسة: إثبات الوعيد وتحققه.

الفائدة السابعة: إثبات الوعد وتحققه.

الفائدة الثامنة: بيان سمة النفس المؤمنة، وهي الطمأنينة.

---

[٥] المسند (18534) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.